

أسواق مكة والمدينة

تأليف: عباس المهاجر
المقدمة:

لببلاد العرب موقع جغرافي متوسط بين بلاد أعظم الدول، وأقدم الحضارات، فالي شمالها الشرقي بلاد فارس وإلي شمالها الغربي بلاد الروم ومصر وإلي غربها الجنوبي وراء البحر بلاد الحبشة وفي جنوبها البحر الهندي الذي يفصلها عن بلاد الهند.

ولا نكون مغالين إذا قلنا أن معظم تجارات العالم منذ القديم حتي القرون الوسطي هي بين هذه البلاد التي عددنا. فالدولتان العظيمنتان اللتان تنازعتا علي السيادة في العالم، وهما دولتا فارس والروم، كانتا علي علاقات تجارية وسياسية حسنة مع بلاد العرب في الشمال والجنوب. وقل من تلك العلاقات علاقة الحبشة والهند باليمن وعمان والبحرين.

وكان للموصلات التجارية في جزيرة العرب طريقان احدهما شرقي يصل عمان بالعراق وينقل بضائع اليمن والهند وفارس براً ثم يجوز غرب العراق إلي البادية حتي ينتهي به المطاف في اسواق الشام. والطريق الثاني وهو الأهم - غربي - يصل اليمن بالشام محتجازاً بلاد الحجاز، ناقلاً أيضاً، بضائع اليمن والحبشة والهند إلي الشام، وبضائع الشام إلي اليمن حيث تصدر إلي الحبشة وإلي لهند في البحر. فكان من المعقول أن يمارس كثير من العرب التجارة رجالاً ونساءً وخاصة الذين تقع بلادهم قريبة من أحد هذين الطريقين، ومن لم يتاجر منهم أفاد من التجارة بالواسطة، فعمل في هذه القوافل إما سائقاً وإما منتظماً في جملة حماتها الذين يؤجرون أنفسهم وسلاحهم ودوابهم فيها.

قد شغلت دول العرب القديمة كتدمر وسبأ والمعينين، المراكز الممتازة في تجارة الشرق حتي ذكرتهم التوراة ووصفت ثروتهم وتجارتهم. وحمل أهل تدمر في القديم إلي مصر وجنوب أوربا صادرات بلاد العرب والعراق والهند، وكانت النفائس التي يحملها التدمريون من بلاد الشرق أثمن ما يتغالي به الملوك القياصرة.

وفوق هذا كله، كان لهؤلاء العرب ذوي الملكة التجارية الراقية اهتمام بما حولهم من الأقطار التي يتاجرون فيها وإليها ومراقبة لما يجري هناك من أحداث وقد دفعتهم إلي ذلك طبيعة التجارة وما تتطلب من درس وإلمام بالأسواق وأمنها واحوال المسيطرين علي شعوبها، وأنت تعرف ذلك من الحرب، التي كانت بين الفرس والروم في مشارف الشام، قبل الهجرة بست سنين وكيف كان مشركو مكة فرحين بانتصار الفرس إذا كانوا مثلهم غير ذوي كتاب، وقد شمتوا بهزيمة الروم إذ كانوا كالمسلمين أتباع كتاب سماوي، وقد سجل القرآن الكريم هذه الظاهرة، ظاهرة اهتمام المكيين بما يجري حولهم من شؤون الفرس والروم في الآية الكريمة:

١١٢ ألم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بعض سنين. . .

هذا هو مجمل ما أردت أن أعرض له من بيان إهتمام العرب بالتجارة وإليك - أيها القارئ - أهم الأسواق وسياستها التجارية في مكة والمدينة: -

(أسواق مكة والمدينة)

أولاً: - سوق عكاظ:

عكاظ هي المعرض العربي العام أيام الجاهلية، معرض بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم لدينا نحن أبناء هذا العصر: فهي مجمع أدبي لغوي رسمي، له محكمون تضرب عليهم القباب، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وادبهم، فما استجدوه فهو الجيد، وما بهرجوه فهو الزائف.

وحول هذه القباب الرواة والشعراء من الأقطار العربية عامة، فما ينطق الحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة، فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادها، تلهج بها الألسن في البوادي والحواضر. يحمل إلي هذه السوق التهامي والحجازي والنجدي والعراقي واليمامي واليميني والعماني، كل أفاظ حية ولغة قيطرة، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلا واصطفاءً حتى يتبقي الأنسب الأرشق ويطرح المجفو الثقيل.

وعكاظ هي السوق التجارية الكبرى عامة، يحمل إليها من كل بلد تجارته وصناعته كما يحمل إليها أدبه، فإليها يجلب الخمر من هجر والعراق وغزة وبصري، والسمن من البوادي ويرد إليها من اليمن البرود الموشاة والأدم، وفيها الغالية وأنواع الطيب وأدوات السلاح، ويباع فيها الحرير والوكاء والحذاء والمسير والعدني يحملها إليها التجار من معادنهم، وفيها من زيوت الشام وزبيبا وسلاحها ما اعتادت قريش أن تحملها في قفولها إلي مكة. ويعرض فيها كثير من الرقيق الذي ينشأ عن الغزو وسبي الذراري فيباع فيها بيع المتاع التجاري.

ويبيع فيها كل غاز ما سلبه وكثيراً ما يكون هذا البيع سبباً في قتل صاحبه إذا أبصر السلاح أحد من ذوي المقتول فعرفه، فإنه يضمها في نفسه وينتظر أن يظفر بالرجال ليثار منه.

وتصل من تجارة فارس أشياء إلي عكاظ: فإن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلي سوق عكاظ كل عام لطيحة (وهي في الأصل العير المحملة مسكاً) في حوار رجل شريف من أشرف العرب، يجيرها له ويحميها من كل معتدٍ حتي تصل سالمة إلي عكاظ؛ فتباع هناك وبشري بثمنها ما يحتاج إليه من أدم (جلود) الطائف وسائر المتاع إلي عكاظ: من حرير وعصب مسير، ويبيع فيها حلة ذي يزن فاشتراها حكيم بن حزام ليهدبها رسول الله (١)، بل إن عكاظ نفسها مشهورة بما يعرض فيها من جلود حتي قالوا: "أديم عكاظي" نسبة إليها.

حتي البضائع المجهولة الأصل المعروضة في عكاظ تجد من شرائع القوم وإعرافهم التي التزموها ما يجعلها كاسدة لا يرغب فيها أحد، فهذا بعض لصوص العرب "قرب إبلاً للبيع في سوق عكاظ وكان أغار عليها من كل وجه، فلما عرضها قيل له: "ما نارك؟" (أي ماسمة إبلك؟ وكانوا يعرفون علامة كل قوم التي يسمون إبلهم بها ويعفون كرمها من لؤمها) فلما كثر ذلك عليه أنشأ يقول:

١١٣ يسألني الباعة أين نارها

وهي معرض لكثير في عادات العرب واحوالهم الاجتماعية :

فها هنا (قس بن ساعدة) يخطب الناس، بذكر الخالق ويعظهم بمن كان قبلهم ويأمرهم بالخير (٣). وهناك خالد بن أرطاة الكلبي تتعبه قبيلته وقد جاء لينافر جرير بن عبد الله الجبلي ومع هذا حبه أيضاً وقد ساق كل منهما مالاً عظيماً ينافر عليه، وعرض الحكومة علي رجالات قريش فأبوا أن يحكموا خوف الفتنة بين الحيين، فالرجلان في عكاظ ينتظران الأقرع بن حابس ليقوم بهذه الحكومة وقد ساق الرهن فوضعها عند عتبة بن ربيعة (٤) دون جميع من شهد علي ذلك المشهد، وها هنا عمر بن الخطاب في الجاهلية يصارع (٥) ، وثمة كاهن وعراف وعائف وقائف، وقرد، وغنم، وصحيفة وكاتب. وهناك أناس من غواة الشهرة: هذا يمد رجله وينشد شعراً ويقول: "من كان أعز العرب فليقطع رجلي" وآخر يأتي عكاظ بيناته ترويحاً لزواجهن، وأناس قدموها ليختاروا من يتزوجون إليه. .

قال المرزوقي :

"كان في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب: كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد، والحلة الحسنة، والركوب الفاره، فيقف بها وينادي عليه: "ليأخذه أعز العرب" يرد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته."

وكان كسري يبعث في ذلك الزمان بالسيف القاطع والفرس الرائع والحلة الفاخرة فتعرض في تلك السوق وينادي مناديه: "إن هذا بعثه الملك إلي سيد العرب" فلا يأخذه إلا من أذعنت له العرب جميعاً بالسؤدد فكان آخر من أخذه بعكاظ حرب بن أمية، وكان كسري يريد بذلك معرفة ساداتهم ليعتمد عليهم في أمور العرب فيكونوا عوناً له علي اعزاز ملكه وحمايته من العرب. . . . " (٦) .

وهي ندوة سياسية عامة، تقضي فيها أمور كثيرة بين القبائل: فمن كانت له إتاوة علي قبيلة تزل عكاظ فجاءوه بها، ومن أراد تخليد نصر لحيه فعل فعل عمرو بن كلثوم فرحل إلي عكاظ وخلده فيها شعراً. ومن أراد إحارة أحد هتف بذلك في عكاظ؛ حتي يسمع الناس عامة ومن أراد اعلان الحرب علي قوم أعلنه في عكاظ، حتي (جمعية الأمم) أو (هيئة الأمم المتحدة) وما قامت به من مجهود (رسمي) في سبيل السلم الخاص، كان لها صورة مصغرة تشبهها بحسب الظاهر (لا في الحقيقة، لأن عكاظ لم تكن ترائي فتستغل الدعاية الشريفة لتسيغ للقوي أكل الضعيف) ، فقد روي الأصفهاني أنه: "اجتمع ناس من العرب بعكاظ منهم قره بن هبيرة القشيري والمخيل وهو في جوار قره، في سنين تتابعت علي الناس فتواعدوا وتوافقوا ألا يتفاوروا حتي يخضب الناس! ". (٧) ولا يخفي علينا أنه كانت تكون في عكاظ "وقائع مرة بعد مرة" (٨) .

١١٤ وكانت هذه السوق تقوم في العرب يومئذ مقام الجريدة الرسمية في أيامنا هذه وقد تقدم أنفاً شيء من ذلك في أمر الجوار وأخبار الحروب.

وخير ما يعطينا صورة واضحة عن عكاظ أن نعرض لأهم الأحداث التي جرت فيها، فنتمثل بوساطتها أحوال العرب في هذه السوق الكبرى، في بيعهم وشرايتهم وتخاصمهم وتفاخرهم وحربهم وسلمهم.

وأشد ما يثير الاستغراب، هذا الشبه الكبير بين عكاظ ومعارض هذا العصر، بل إن عكاظ لأوسع مدي فيما يعرض، فإنه لا يقتصر علي مواد التجارة والصناعة بل يتعداهما إلي الأدب والشعر والحرب والسلم والعادات. . . . فإذا أنا أفضت في وصف عكاظ وما فيها، فإن ذلك إفاضة في وصف سائر أسواق العرب أيضاً. فليس فيهن سوق تساميهما. وما جري في عكاظ جري قريب منه في بقية الأسواق مع مراعاة صغرهما واقتصاريهما أحياناً علي اهل ناحية واحدة، فليكن تاريخ عكاظ إذاً تاريخاً لكل أسواق العرب، وتاريخاً لكثير من عاداتهم الاجتماعية أيضاً.

الموقع الجغرافي لعكاظ:

عكاظ نخل في واد بين مكة والطائف علي مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف، وموقعها جنوب مكة إلي الشرق. هذا زبدة ما يستخلص من تعاريفهم المتضاربة في عكاظ (٩) . وتقوم السوق في مكان منه يعرف بالأثداء فيه مياه ونخل، وهو مستو لا علم فيه ولا جبل إلا مكان من الأنصاب التي كانت لأهل الجاهلية، وبها من دمء البدن كالأرحاء العظام (١٠) . كانوا يطوفون حول صخور فيها، وربما كان ذلك شعيرة من شعائرهم فقد ذكروا أنهم كانوا يحجون إليها وبالأثداء كانت أيام الفجار.

والظاهر أن ما يطلق عليه (عكاظ) في الأرض متسع فسيح فيه حرار وفيه أرضون مسقية ذات نخيل. ولا شك أن أرضاً اتسعت بعض اجزائها لمعارك عدة أرض فسيحة واسعة، وبذلك نفهم كيف كانت السوق تنتقل في عكاظ فلا تلازم بقعة واحدة لاتحيد عنها يميناً ولا شمالاً علي مدي السنين المتطاولة.

وهي وما جوارها ديار قيس عيلان وهوازن منهم خاصة.

معني عكاظ:

أما اشتقاق عكاظ، ولمَ سميت بهذا الاسم؟ فقد ذهب اللغويون فيه مذاهب، قلبوا الكلمة علي معانيها المختلفة: فالقهر والحبس ورد الفخر والتجادل والتجاج. . . . كل هذه معانٍ للعكظ وكلها صالحة لأن يعلل بها التسمية فيقول قوم: سميت عكاظ لأن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً في المفاخرة أي يقهره ويعركه، وقال آخرون إنها من تعكظ القوم إذا تحبسوا لينظروا في أمورهم، وذهب غيرهم إلي أنها من التعاكظ بمعني التفاخر. ١١٥ مواعيد عكاظ:

تقوم هذه السوق في ذي القعدة، وللعلماء بعدُ خلاف في تعيين أيامها من هذا الشهر، فالمرزوقي يجعلها تبدأ من نصفه حتي آخره، وآخرون يجعلون وقتها في شوال (١١) إلا أن الأكثرين علي أنها تبدأ من أول ذي القعدة، وتستمر حتي العشرين منه إذ تبدأ سوق مجنة فيرتحل إليها الناس وهي أقرب من مكة، فإذا أهل ذو الحجة أنقشع الناس إلي مجنة إلي ذي المجاز قرب عرفه وبقوا فيها حتي يوم التروية فيبدأ الحج.

ويمكن جمع الأقوال المتقدمة بأن عكاظ قد تحفل بالناس في شوال ويتم تقاطرهم إليها في ذي القعدة: الزمن الرسمي للسوق وحين تذهب جماعاتهم إلي مجنة في العشرين من ذي القعدة يتخلف كثير ممن لم يكن أنهي بيعه وشراءه، فلا يخلوا السوق تماماً إلا في غرة ذي الحجة عند اقتراب الحج (١٢) .

وخلال هذه الأيام في عكاظ يتهيء العرب للحج ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون ويتقارعون ويتنافرون ويتعاضمون.

ولم يكن هناك مجمع للعرب أحفل من عكاظ، فكانوا يضربون بكثرة أهلها المثل، وبقيت لها هذه الشهرة بعد الإسلام، فقد جاء في الأمالي: أن عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب (عليه السلام) لما سئل عن قتله علياً قال: "ضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ لقتلهم" (١٣) . وكان يقوم بأمر الحكومة عامة فيها بنو تميم (١٤) . كانت الحكومة في الشعر للناطقة الذيباني.

ثانياً - سوق مجنة:

مجنة موضع وقيل بلد قرب مكة علي أميال منها، تقع بمر الظهران، قرب جبل يقال له الأصفر وهو أسفل مكة علي قدر بريد منها، ميمها بالفتح وتكسر (١٥) . والظاهر أنها من المواطن التي لا ينساها أهل مكة لبعض جمال فيها ولأنها ذات مياه، فقد جاء في كتب السيرة: أن بلالاً لما هاجر إلي المدينة واصيب بالحمي، تشوق إلي مكة ومواطنها وتغني بقوله: -

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

هذه السوق لكنانة وأرضها من أرض كنانة، تقوم في الشعر الأواخر من ذي القعدة ويقصدها العرب بقضهم و قضيضهم بعد أن تنقض سوق عكاظ، يتممون فيها ما قصدوا له من تجارة وفداء وتفاخر. . . . علي شبه التفصيل المتقدم في عكاظ، ويجلب إليها ما يجلب إلي تلك من متاع وعروض، ولم تكن الخمرة لتقل فيها شأنًا عن بقية الأسواق فقد كانت تحمل إليها من معادنها من الشام، ومن بصري وغزة حتي صار يشيد بذكرها الشعراء، قال أبو ذؤيب الهذلي:

سلافة راح ضمنتها إداوة مقيرة ردف لمؤخرة الرحل
١١٦ تزودها من أهل بصري وغزة

ومجنة وعكاظ وذو المجاز تستوي في نظر المحرمين من العرب وتتمتع منهم جميعاً باحترام واحد حتي إن بعضهم لا يردّها إلا محرماً.

قال الأزرقى:

"كانت قريش وغيرها من العرب تقول: "لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذى المجاز إلا محرمين بالحج، وكانوا يعظمون أن يأتوا شيئاً من المحارم أو يعدو بعضهم علي بعض في الأشهر الحرم وفي الحرم" (١٧) .

ومجنة - وإن قرنت في أغلب الأحيان مع عكاظ وذى المجاز - دون هاتين السوقين شأنًا حتى إن المرزوقي لم يذكرها مستقلة كما ذكر غيرها بل أكفى بقوله: " وزاد بعضهم في الأسواق المجنة وهو قريب من ذي المجاز".

ثالثاً: - سوق ذي المجاز:

لهم في تحديدها قولان:

الأول: أنها علي فرسخ من عرفة بناحية كبكب، وكبكب جبل بعرفات خلف ظهر الإمام إذا وقف. ذكره ياقوت وغيره وهو أحد قولين نقلهما الزبيدي.

والثاني: أنها موضع بمني، ومني بين مكة وعرفات في نصف الطريق تقريباً، والذين نقلوا الأول أكثر عدداً وإن كان القول الثاني أدني إلي القبول. وسمي ذا المجاز لأن إجازة الحاج كانت منه، ولعل السوق أحياناً تمتد، أو ينتقل الناس فيها؛ يقتربون ويتعدون حتى تشتغل هذه المسافة.

وذو المجاز من ديار هذيل، هم أهلها وجيرانها الأدنون.

يكثر ورود ذي المجاز في شعر العرب ولاسيما شعراء هذيل، لأنها من اسواقهم الكبرى، ومن المواسم أيضاً، قال أبو ذؤيب الهذلي:

وراج بها من ذي المجاز عشية يبادر أولي السابقات إلي الحبل

وقال الليثي:

للغنايات بذي المجاز رسومفي بطن مكة عهدهن قديم

أما التي ذكرها الحارث بن حلزة في معلقته:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء

فالغالب أنها التي في شمال الجزيرة، لأن مقام قبيلته والأحداث بينها وبين غيرها كانت هناك.

١١٧ إذا انقشع الناس عن مجنة حين يهّل ذو الحجة، ساروا بأجمعهم إلي هذه السوق، وأقاموا بها حتي اليوم الثامن من ذي الحجة، وهو يوم التروية، سمي بذلك لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء ويملؤون أوعيتهم لما بعده إذ لاماء يعرفه. وإلي هذه السوق تتقاطر وفود الحجاج من سائر العرب ممن شهد الأسواق قبلها، أو لم يشهدها وأتي للحج خاصة، إذ إن ذا المجاز من مواسم الحج عندهم.

تحفل ذو المجاز لوقوعها أيام الحج بجموع العرب وتجارتهم وأشرافهم، وهي تلي عكاظ في الشأن، ويجري فيها ما يجري في هذه من تباع وتناشد وتفاخر وفداء أسري وطلب ثار. . . إلي آخره، يقصدها صاحب الثار ليعرف فيها واتره، فيتربص به بعد انقضاء الشهر الحرام إن كان من المحرمين وإلا عاجله فأخذ بثأره وإليك بعض أحداثها:

روي الأصفهاني: "أن قيس بن الخطيم لم يزل يلتمس غرة من قاتل أبيه وجده في المواسم حتي ظفر بقاتل جده بذي المجاز، فلما أصابه وجده في ركب عظيم من قومه، ولم يكن معه إلا رهط من الأوس، فخرج حتي أتى حذيفة بن بدر الفزاري فاستنجده فلم ينجده، فأتي خداش بن زهير فنهض معه ببني عامر حتي أتوا قاتل عدي (جد القيس) فإذا

هو واقف علي راحته في السوق، فطعنه قيس بحربة فقتله ثم استمر. فأراده رهط الرجل فحالت بنو عامر دونه. . . إلي آخره".

ويروي الجاحظ أن حالف أبو الأزيهر الدوسي وكان عظيم الشأن في الأزدي أبا سفيان بن حرب عظيم بني أمية، وكان بين أبي الأزيهر هذا وبني الوليد بن المغيرة محاكمة في ماهرة. فإن أبا الأزيهر لقاعد في مقعد أبي سفيان بسوق ذي المجاز إذ جاء هشام بن الوليد فضرب عنقه في مقعده ذاك بذي المجاز وانتظر الناس أن يأخذ أبو سفيان بثأر حليفه من هشام فلم يفعل ولم يدرك به عقلاً ولا قوداً من بني المغيرة، وتحدث بذلك أهل السوق من قبائل العرب وراجت في الناس حتي عبروا بها أبا سفيان وحتي قال حسان بن ثابت فيها:

غدا أهل حضني ذي المجاز بسحرة

هذه الأسواق الثلاث: عكاظ ومجنة وذو المجاز التي كانت تقوم في أيام الحج ويؤمنها العرب قاطبة من كل حذب وصب، شهدت إلي جانب مناظر البيع والشراء، والمفاخرة والانشاد، مشهداً من أفضع مشاهد الجفاء والتنكر والأذي لصاحب الشريعة الإسلامية محمد (صلي الله عليه وآله وسلم) وابتلعت تلك الأسواق بضجيجها وما كانت تعج به من حوادث، صوت الدعوة الإسلامية فيما ابتلعت من دعوات، وغاب صوت صاحبها في ذلك الرغاء والصخب والزحام، فلقد مكث الرسول (صلي الله عليه وآله وسلم) بمكة مستخفياً ثلاث سنين ثم أعلن في الرابعة ودعا الناس إلي الإسلام عشر سنين يوافي فيهن المواسم كل عام، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذو المجاز يدعوهم أن يمنعوه حتي يبلغ رسالات به، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه، حتي إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة فيردون عليه أفبح الرد ويؤذونه ويقولون له، "قومك أعلم بك" (١٩).

١١٨ كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج، موزع السمع بين داع إلي ثار وناشد ضالة، ومنشد قصيدة، وخطيب، وعارض بضاعة، وحامل مال لفك أسير، وقاصد شريف لإجازة أو حمالة، وداع إلي عصبية، وأمر بمنكر. . . فيجد شيئاً معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا. لكنه بعد عام الفيل بثلاث واربعين سنة يجد أمراً لم يألّفه قط، ولا سمع بمثله: رجلاً كهلاً وضيقاً عليه سمات الوفا والخير، يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة: هذه بنو عامر بن صعصعة، وهذه محارب وتلك فزارة، والرابعة غسان، وهناك مرة وحنيفة، وسليم وعبس، وهنا بنو نصر وكندة، وكعب وعذرة، وهؤلاء الحارث بن كعب وأولئك الحضارمة. . . إلي آخره.

يؤمن منازل كل قبيلة، ويقصد إلي شريفها يدعو بالرفق إلي الله، وفعل الخير، فيتجهم له هذا، ويعبس ذاك، ويجبهه ذلك ويحقره آخر. . . فيلقي من الصد ألواناً يضيق ببعضها صدر الحليم. فلا يؤبسه ما لقي، ولا يكفه ما أؤذي، فيمضي متئداً حزيناً إلي قبيلة أخرى وشريف آخر يعرض نفسه عليهم ويقول: "هل من رجل يحملني إلي قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي" فلا يجد مجيباً، حتي تدارك الله نبيه بوفد الأنصار.

هذا ما حفظته لنا كتب السير والأدب من مشاهد مؤثرة، فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة إلي الخير، فقد تردد في أجوائها الصوت الضعيف الخافت، يطلب حماية واجابة. ولئن صدف عنه الناس وازوروا في أسواق الجاهلية. لقد ملأ هذا الصوت فيما بعد ما بين المشرق والمغرب، وطبق الخافقين بأثاره التي بثها في العالمين رحمة وعدلاً وعلماً وإنسانية وسعادة ومثلاً عليا. وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم، أفواج من أمم الحضارة والعرفان، في آسيا وأوروبا وأمريكا صد عنه قديماً أحلاف البادين، وهرع إليه اليوم زمر المتحضرين من كل عالم ومخترع ومصلح وأديب وسياسي، ومفكر يستضيء بعلمه وفكره الملايين من الخلائق.

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة، ولنحتفظ بهذا الدرس، فإن الحق مهما بدا ضعيفاً وبدا خصيمه الباطل قوياً صائلاً، لا بد من أنه ظافر في النهاية عليه. ولنعلم أن اليأس لا ينبغي أن يجد سبيلاً إلي قلب المؤمن، وأنه: -
إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .
رابعاً: سوق دومة الجندل:

دومة الجندل ويقال (دوماء الجندل) كلاهما بالضم (٢٠) ، بلد يقع في نقطة متوسطة بين الشام والخليج الفارسي والمدينة، أقرب إلي المدينة من الشام والخليج الفارسي. ١١٩ وهي في غائط من الأرض طوله خمسة فراسخ وفيها حصن "مارد" المشهور وإلي غربها عين تتج فتسقي ما به من النخيل والزرع، وكانت خربة وروي ابن سعد نقلاً عن بعض أهل الحيرة في سبب بنائها:

" أن أكيدر صاحبها واخوته كانوا ينزلون دومة الحيرة، وكانوا يزورون اخوالهم من كلب فيتغربون عندهم، فإنهم لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا بعض حيطانها وكانت مبنية بالجندل، فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها دومة الجندل تفرقةً بينها وبين دومة الحيرة" (٢١) .

وقال ياقوت "كان فيها قديماً حصن مارد، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل وقرب منها جبلاطيء وكانت بهذا الحصن بنو كنانة من كلب".

وكان أكيدر يبعث بمن يتعرض قوافل التجارة الذاهبة بين المدينة والشام ويظلم من يمر بهم من الضافطة (الذين يجلبون الميرة والطعام) ثم قوي شرهم حتي شاع أن في عزمهم الدنو من المدينة وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة، فندب رسول الله (صلي الله عليه وآله وسلم) الناس، واستخلف علي المدينة، وخرج في ألف من المسلمين يسير الليل ويمكن النهار ومعه دليل من بني عذرة حتي بلغوا الجندل، فتفرقوا وألقي الرعب في قلوبهم، وأخذ من نعمهم وشاتهم ورجع ولم يلق كيداً.

والظاهر أن شرهم لم ينقطع عن تجار المدينة حتي اضطر الرسول (صلي الله عليه وآله وسلم) أن يرسل إليهم سرية عليها عبد الرحمن بن عوف، وأوصاه حين دفع إليه اللواء بقوله: "خذه (٢٢) ، يابن عوف فاغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدأ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم. . . " وقال له: "إن استجابوا لك فتزوج بنت ملكهم".

سار عبد الرحمن حتي بلغ دومة الجندل فدعا أهلها إلي الإسلام فأسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو الكلبى وأسلم معه ناس كثير من قومه وتزوج عبد الرحمن ابنته (تماضر) وبقي علي الجزية هو ومن معه.

تنزل قبائل العرب في الجاهلية هذه السوق في أول يوم من ربيع الأول للبيع والشراء وكان بيعهم فيها بيع الحصة.

ويجاور هذه السوق من قبائل العرب قبيلتا كلب وجديلة طيء. وكانت كلب أكثر العرب قناً فكانوا يفتحون في هذه السوق حوانيت من شعر يجعلون فيها عبيدهم وإماءهم. وكانوا - علي عادة بعض العرب يكرهون فيها فتياتهم علي البغاء ويأخذون لانفسهم كسب أولئك البغايا من إماءهم.

فلما كان الإسلام وحرم الله هذه العادة القبيحة بقوله تعالي:

١٢٠ ولا تكرهوا فتياتكم علي البغاء إن أردن تحصناً (٢٣) .

تنزه العرب عن هذه التجارة التي كانوا عليها في الجاهلية وتجاوز الله عما كان منهم قبل الإسلام.

يشرف علي هذا الموسم أمراء من العرب وكان رؤساء السوق غالباً إما من كلب وإما من غسان، أي الحيين غلب خضع له الآخر، وكان مكس هذه السوق لمن يشرف عليها. ويدور نشاط هذه السوق حتي منتصف ربيع الأول وتغص بمن يؤمها من اطراف الشام والعراق وسائر الجزيرة. وهي من الأسواق الكبرى للعرب حتي إنهم ليلقون فيها سيرهم نصباً كبيراً لوعورة الطريق والتعرض للأخطار وفقدان الأمن. ولا يحملهم علي ذلك كله إلا ما تغريهم به هذه السوق من ربح وفائدة. ثم تفتقر هذه السوق بحركتها وتأخذ بالاضمحلال حتي آخر الشهر، إذ يفترق أهلها وموعدهم إليها في القابل من شهر ربيع الأول (٢٤) .
خامساً: سوق نطاة خيبر

خيبر قرية شمالي المدينة، بينها وبين تبوك. وهي عدة حصون لليهود وفيها مياه ومزارع. ونطاة اسم حصن بها واسم عين أيضاً، وقيل هي خيبر نفسها. وحول القرية نخيل كثير يسقي بعين فيها والبلدة وبنة معروفة في العرب بحماها.
أهلها يهود استوطنوا الحجاز منذ القديم واشتغلوا بالزراعة والتجارة (٢٥) .

ونظراً لوقوع هذه القرية علي الطرق التجارية الكبرى بين اليمن والشام أسهم أهلها بتجارة الجزيرة، وكانت إحدى محطات القوافل التجارية في سفرها إلي الشام. ونجح أهلها في متاجرهم حتي أفادوا منها غني واسعاً واستفاضة لهم ثروات طائلة ونشأت فيهم رؤوس الأموال الضخمة. ولا نعبد إذا قلنا: إن خيبر مصرف الجزيرة المالي. ولما فتحها الرسول (صلي الله عليه وآله وسلم) صالح أهلها علي الشطر من الثمر والحب. ويذكر أصحاب السيرة غنائم خيبر وما وجدوا فيها من كنوز، فيذكرون أموالاً جمّة ودنيا عريضة. بني اليهود فيها حصوناً عديدة جعلوا فيها أموالهم ومسيرتهم من طعام وحب وتمر. وهم في الجملة أهل بأس وشكيمة قاوموا كثيراً قبل أن يفتح المسلمون حصونهم، ثم غلبوا علي أمرهم فافتتح المسلمون حصن ناعم ثم القموص ثم حصن الصعب ابن معاذ وهو اعظم حصونها غناء وأكثرها طعاماً وودكاً، ثم الوطيح، ثم السلالم ثم الشق. وكان في الغنائم ذهب كثير وفضة كثيرة، فجعل الصحابة يتبادلونها حتي نهي الرسول (صلي الله عليه وآله وسلم) أن يتاع الذهب بالذهب والفضة بالفضة. وبين تلك الحصون حصن الشق وحصن نطاة وحصن الكتبية. ولكل حصن خازن يخبئ الأموال لأهله، وكان كنانة بن الربيع عنده كنز بني النضير فلما أسر سئل عنه فانكر فاهتدي الفاتحون إليه فوجدوا أموالاً طائلة.

١٢١ اتسعت تجارات اليهود في خيبر وغيرها حتي استطاع الرجل الواحد منهم كأبي رافع الخيبري أن يسير قوافل تجارية لحسابه إلي الشام. وهم الذين نشروا في الجزيرة التعامل بالربا وأثروا ضخماً. وكلما مرت عبرلقريش أو لطيمة من لطائم النعمان قامت لها سوق في خيبر. وقد جعل المرزوقي زمنها بعد زمن سوق ذي المجاز، أي بعد أشهر الحج وقبل أن تبتدئ سوق حجر.

التقييم الاقتصادي لمكة والمدينة:

كان المسلمون يجهزون العير إلي الشام - كما في الجاهلية - فتذهب بأموالهم ومتاعهم فتباع هناك ثم تحمل إلي الحجاز فتأتي المدينة، وكانوا يستقبلونها بالطبل والتصفيق فرحاً بها، فذكر المفسرون أن دحية بن خليفة الكلبي رجع مرة بتجارة زيت وطعام من الشام والنبوي (صلي الله عليه وآله وسلم) يخطب يوم الجمعة علي منبر مسجد المدينة فاستقبلها الناس كعادتهم بالفرح والطبول والتصفيق، وخشي المصلون أن يسبقوا إلي العير فيفوتهم الربح فتركوا الرسول يخطب وبادروا إليها في البقيع ولم يبق مع الرسول إلا اثنا عشر رجلاً فأنزل الله تعالي في ذلك:

وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً (٢٦) .

وفي القرآن الكريم إشارة إلى فاصل تاريخي في حياة مكة التجارية، وذلك حين نزل قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم (٢٧) .

فلما حرم دخول مكة علي المشركين سنة تسع للهجرة خشى الناس الفقر بسبب انقطاع تجارة المشركين عنهم في المواسم، فوعدهم الله بغني عن غير طريق التجارة، فكان العوض - علي ما ذكر المفسرون - في المغنم والفتوح العاجلة.

وكان لا بد من أن تدخل أحوال العرب التجارية ولاسيما في مكة والمدينة في طور جديد، فاهتم الاسلام بأمر تجارتها وشرع لهم فيها ما يحتاجون إليه، وطفح الحديث الشريف بأحكام البيع والشراء والاحتكار والديون والربا. . . . إلي آخره. . . . وعني الخلفاء بعد الرسول عناية خاصة بالتجارة بعد أن هدأت مشاغل الفتوح أيام أبي بكر وعمر وعثمان، ولنلاحظ أن الفتوح نفسها لم تكن لتخلوا من الاتجار حتي عمال الخليفة أنفسهم، وهذا خير ما يفسر لنا حرص القوم علي حرفتهم ومن حسن الاتفاق أن الخلفاء الثلاثة الأولين كانوا تجاراً، فأبوا بكر وعثمان كانا بزازين، وعمر تجر في الجاهلية استغني في غزة، وكان مبرطشاً (يكترى للناس الإبل والحمير ويأخذ عليه جعلاً) (٢٨) .

١٢٢ أما أمير المؤمنين (عليه السلام) فلم نعرف أنه تجر وقد ظهر الإسلام وهو صبي، ومع هذا فقد كان أمير المؤمنين (عليه السلام) علي علم من التجارة واحوالها لانها مهنة قومه، ولما ولي الخلافة لم يكن يجهل خطر التجارة وقيمتها، ومن الطريف حقاً أن نقل بهذه المناسبة مرسوماً أصدره إلي عامله الأشتر في التجار والصناع، فإنه يدل علي احاطته بأسرار التجارة وأخلاق التجار ويعلمنا من جهة ثانية منزلة هذه الطبقة من بين بقية الطبقات وما كان يعلق عليها من مهام، قال:

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع واسباب المرافق وجلا بها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك وسهلك وجيلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترؤون عليها فإنهم سلم لا تخاف بانقته وصلح لا تخشي غائلته. . . . إلي آخر (٢٩) .

ولنا أن نستأنس بشيء آخر له خطره في الدلالة علي ما شغلت التجارة من حياة العرب وأفكارهم واهتمامهم، وذلك هو اللغة والأشعار والأمثال، فإنها تكشف لنا إلي حد بعيد ما كان عليه القوم من عادات واحوال: وأول ما نلاحظ في هذا الباب غني اللغة بالألفاظ التي تتعلق بالأسفار، وما إليها من حط وترحال ونزول علي الماء، ووصف لدواب السفر وضروب سيرها، ولسنا مبالغين اذا قلنا: إن أكثر القصائد في الجاهلية والإسلام يفتتحها صاحبها بذكر رحلته، وما لاقى فيها هو وراحلته من التعب والشقاء، والضيق والعطش والجوع، عدا ما هناك من ألفاظ كثيرة تتعلق بالبيع والشراء والصفقة الرابحة والخاسرة.

وأما الأمثال التي تتعلق بأمورهم التجارية واحوالهم فيها فكثيرة وإليك طائفة منها تمثل لنا شيئاً من تجارتهم واحوالهم في أسفارهم:

عند الصباح يحمد القوم السري - لا تدرك الراحة إلا بالتعب - قتل أرضاً عالمها وقتلت أرض جاهلها - أن ترد الماء بماء أكيس - لا يرحل رحلك من ليس معك - إن يدم أطلك (٣٠) فقد نقب - وإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. . . إلي آخره (٣١) .

هذا مجمل ما أردت أن أعرض له، في بيان اهتمام العرب في التجارة، ولم اقصد فيه إلي شيء من التطويل، وإنما نريد التأكيد علي اسواق العرب في مكة والمدينة ولما لها من أهمية بالغة في حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية والسياسية آنذاك.

الهوامش:

(١) انظر تفصيل هذا الخبر في تهذيب تاريخ ابن عساكر: ٤١٤ - ٤١٥.

- (٢) بلوغ الأرب ٢:١٦٣.
- (٣) ١٢٣ مجلة المشرق - السنة ٨٤:٣٥.
- (٤) رسائل الجاحظ: ١٠٢ - بلوغ الأرب ١:٣٠١ - ٣٠٥.
- (٥) طبقات ابن سعد ١:٢٣٥.
- (٦) مثير العزم الساكن في فضائل البقاع والأماكن لأبن الجوزي، كراس الخامس عشر.
- (٧) الأغاني ١١:٣٧.
- (٨) بلوغ الأرب ١:٣٦٨.
- (٩) من حسن الحظ أن ذهب فتحري موضعها بنفسه باحث عربي فوصفه لنا. وهو السيد خير الدين الزركلي الشاعر في كتابه (ما رأيت وما سمعت) ص ٧٩. قال: "علي مرحلتين من مكة الذهاب إلي الطائف في طريق السيل يميل قاصد عكاظ نحو اليمين، قيسير نحو نصف ساعة فإذا هو أمام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها (القانس - بالكاف المعقودة) وهي موضع سوق عكاظ.
- (١٠) معجم ما استعجم للكبري: ٦٦٠ - ومراصد الأطلاع وياقوت الحموي.
- (١١) ذكره الياقوت.
- (١٢) هناك من نقول: أن لعكاظ غير تلك السوق السنوية التي تجتمع بها القبائل، لها أيضاً سوق أسبوعية تقوم كل يوم أحد للبيع والشراء. . أنظر (مدينة العرب في الجاهلية والإسلام) لرشدي: ٥٩.
- (١٣) الأمالي ٢:٢٥٦.
- (١٤) كتاب (المحبر): ١٨٢.
- (١٥) لقد جاء في تاج العروس المجنة كثيرة الجن، وفي الصحاح ذات الجن.
- (١٦) أخبار مكة اللارقي: ١٣١.
- (١٧) أخبار مكة: ١٣٢.
- (١٨) رسائل الجاحظ (جمع السندويي): ٧٦ بتصرف يسير.
- (١٩) شرح المواهب ١:٣٠٩ - تهذيب تايخ ابن عساكر ج ٤:٤١٥.
- (٢٠) ونقل بالفتح فيها صاحب النهاية، وفي الصحاح أن أصحاب اللغة يضمنون وأصحاب الحديث يفتحون.
- (٢١) طبقات ابن سعد: ٦١.
- (٢٢) سيرة ابن هشام ٣:٤٤٣.
- (٢٣) النور: ٣٣.
- (٢٤) الأزمنة والأمكنة ٢:١٦١.
- (٢٥) اسواق العرب - الأفغاني: ٣٥٦.
- (٢٦) الجمعة: ١١.
- (٢٧) التوبة: ٢٨.
- (٢٨) انظر مادة برطش في (تاج العروس) .
- (٢٩) نهج البلاغة.
- (٣٠) الأطل: ما تحت منسم البعير - والمعني: أشكو من مثل ما تشكو.
- (٣١) الذي يجد في سيره حتي ينقطع أخيراً عن أصحابه في السفر.